مجلة مركز بحوث ودراسات

المدينة المنورة

العدد الثامن عشر / رجب - رمضان ١٤٢٧هـ أغسطس - أكتوبر ٢٠٠٦م

١٨

- بحوث المدينة المنورة بين الواقع والتطلع
- دراسة صحية لوجبة إفطار الصائمين المقدمة من المبرات الخيرية بالمدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة
- من النباتات الطبية في المدينة المنورة : البشـــام
- غاز الرادون وضرورة تحديد تركيزه في بيئة المدينة

معبود الأوس والخزرج في الجاهلية

د. محمد العيد الخطراوي

أديب وأستاذ جامعي سعودي من المدينة المنورة

كانت الأوس والخزرج في الجاهلية كغيرها من العرب تدين بأكثر من صنم واحد ، ولكنها أكثر ما كانت تدين بمناة ، فهو معبودها الأساس الذي يعرف بها ، وتعرف به .

وكان هذا الصنم منصوباً بالمشلّل ، قالوا : وهو جبل يهبط منه إلى قُديد من ناحية البحر الأحمر ، فهي أقرب إلى مكة ، وقال العَرْجي[1] :

أَلا قُل لمن أمسى بمكة قاطناً ... ومن جاء من عَمْقٍ ، ونَقْب المُشَلّل

دعوا الحجَّ ، لا تستهلكوا نفقاتِكُم ... فما حَجُّ هذا العام بالمُتقبّل

وقال الفيروز أبادي في المغانم[2] : قُديد كزُبير، موضع بين الحرمين، وقال البكري في معجمه[3]: قُديد : قرية جامعة كثيرة المياه والبساتين، وكان مناة الصنم فيها ، في المشلّل ، ثنية في ذلك الموضع .

---

(١) البيتان لعبدالله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان الأموي القرشي أبو عمر، شاعر غزل مطبوع، كان من الأدباء الأسخياء، ومن الفرسان المعدودين، صحب مسلمة بن عبدالملك في وقائعه بأرض الروم، وهو من أهل مكة، ولقب بالعرجي، لسكناه قرية العرج في الطائف . ومناسبة هذه الأبيات أن هشام بن عبدالله لما ولي الخلافة ولى خاله محمد بن هشام مكة، وكتب إليه أن يحج بالناس، فهجاه العرجي بأشعار كثيرة منها هذه الأبيات . الأغاني ٦٨٤/١ ،وانظر أخبار الزجاجي ص٣٨٨ .

(٢) المغانم المطابة ٣٣٤

(٣) (ص١٥٥٤) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وهي الآن ليست بذات مزارع ، وتقع بعد خليص في طريق الهجرة، وأنت قادم من مكة إلى المدينة وهي من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى تعريف.

وكان رمز مناة عبارة عن حجر أسود[١]، والذي نصبه بالمشلّل هو عمرو بن لحيّ ، وكانت العرب كلها تعظم مناة وتذبح حولها ، وقيل : "سمّيت بذلك لأن دماء النسائك كانت تمنّى عندها ، أي تراق، وبعضهم كان يسميها : (مناءة) من النّوء ، كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها ، ولم يكن أحد أشد إعظاماً لها من الأوس والخزرج ، كانوا إذا حجوا يقفون مع الناس المواقف كلها ، ولا يحلقون رؤوسهم ، فإذا نفروا أتوها فحلقوا رؤوسهم عندها ، وأقاموا حولها ، ولا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك ، ولإعظامهم لها يقول عبدالعزى بن وديعة المزني[٢] :

إني حلفت يمين صِدق بَرَّةٍ بمناة ، عند محل آل الخزرج

وكانوا يهلون لها ، ومن أهل لها لم يطف بين الصفا والمروة ، روى الإمام أحمد[٣] عن عروة عن عائشة قالت: إن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلّل ، وكان من أَهلّ لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة ، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية، فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾[٤].

(١) بلوغ الأرب (١٢٠٢) .

(٢) الأصنام لابن الكلبي ص١٢ .

(٣) مسند الإمام أحمد، كتاب باقي مسند الأنصار حديث رقم (٢٣٩٦٠) .

(٤) سورة البقرة آية (١٨٥) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وكانت مناة تسمّى أيضاً إلهة القضاء ، ولا سيما قضاء الموت، وكانت أيضاً لهذيل وخزاعة والغساسنة ، وممن يعظمها قريش ، وكثير من العرب، ولهذا كان بعضهم يسمي أبناءه بعبد مناة ، وزيد مناة .

وفي سنة ثمان للهجرة النبوية الشريفة ، وهو عام الفتح ، وعلى بعد خمس ليالٍ من المدينة المنورة ، بعث الرسول ﷺ علياً ﷺ إليها فهدمها، وأخذ ما كان لها ، فأقبل به إلى النبي ﷺ ، فكان فيما أخذ سيفان، كان الحارث بن أبي شمّر الغساني - ملك غسان - قد أهداهما لها ، واسم أحدهما: مِخْذَم، والآخر : رَسُوب ، وهما سيفا الحارث اللذان ذكرهما علقمة الفحل في شعره فقال[1] :

مُظاهرُ سِربالَيْ حَديدٌ عليهما عَقيلاً سيوف : مِخْذَم ، ورِسوب

فوهبهما الرسول ﷺ لعلي ﷺ .

وقيل : إن الذي هدمها هو سعيد بن زيد الأشهلي[2]، وقد يكون سعيد هذا ممن انتدب إلى هدمهما تحت إمرة علي ، وهو رجل من الأوس يعرف أسرار مناة في الجاهلية ، واعتاد هو قومه الطواف بها والحج إليها .

ولا غرابة إن كانت مناة ليست في يثرب ، فقد كانت قريش تعظمها أيضاً وهي ليست ببلادها ، وكانت اللات بالطائف وتعظمها قريش أيضاً وغيرها من العرب ، حتى إنها عرفت في آثار تدمر والنبط[3] ومعناها : الإله، وكانت صخرة مربعة أقيم عليها بناء ، كما كانت قريش والأوس والخزرج وغيرهم يعظّمون

---

(١) البيت لعلقمة الفحل من قصيدة له مطلعها :

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب ، انظر طبقات فحول الشعراء ص١٠٦ ، منتهى الطلب من أشعار العرب ٧٠/١ ، العمدة لابن رشيق ٨٣/١ .

(٢) الطبري (٦٦/٣) .

(٣) تاريخ الإسلام السياسي والديني (٧١/١) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

العزّى ، وهي ليست ببلادهم أيضاً، بل كانت قائمة بواد من نخلة الشامية يقال له : حُراض ، بإزاء الغمير ، وذلك فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال .

وإذا كانت مناة أعظم الأصنام عند الأوس والخزرج ، فإن اللات أعظم صنم عند ثقيف ، والعزّى أعظم صنم عند قريش ، ولكن هذا لا يمنع عندهم من الدينونة للأصنام الأخرى ، لأن الشرك عند العرب لم يكن مقصوراً على إشراكهم معبودات مع الله، بل كانوا يشركون حتى بين هذه المعبودات ، ومن مظاهر تعظيم الأوس والخزرج للعزّى قول درهم بن زيد الأوسي[1] :

إني ورب العزّى السعيدة والله الذي دون بيته سَرِف

وإنما الغريب بحق أن لا تشير المراجع إلى وجود حرم أو بيت لمناة في يثرب يتقرب إليها فيه أهله بالنذور ، مع أنها أشارت إلى بيت اللات بالطائف، والعزى بنخلة ، ونائلة وإساف وهُبَل بمكة ، وسُواع بينبع القريبة من يثرب ، فالمفترض أن تكون بها محجات ومعابد كغيرها من الحواضر ، وهو افتراض قد تتكفل التنقيبات الأثرية بإيضاحه في يوم من الأيام .

ومن المفترض أيضاً أن تشتمل أسواق يثرب على بعض أماكن التعظيم لمناة، فإن أسواق العرب في الجاهلية كانت في الأصل مواسم أعياد وثنية ، أكثرها سنوي ، ثم ظهرت وظائفها الأخرى تبعاً لذلك ، ولعل بعض البيوت كان بسوق الجسر أو سوق العصبة أو سوق مزاحم أو زَبالة ، وهي أسواق يثرب الشهيرة التي كان الناس يرتادونها من كل مكان ، فالعرب في عصورهم الجاهلية كانوا كغيرهم من الأمم ، لهم أسواق قروية وأسواق في المدن ، تتفاوت سعة ونوعاً وسيولة ، حسب ثروة العاملين بها ونشاطهم وموقع المدينة والقرية وكثافة السكان ، وفي عصور الجاهلية العربية انتشرت الوثنية في الجزيرة العربية ،

(٤) انظر الأصنام لابن الكلبي ص٢٠ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

فأصبح في كل حاضرة صنم تتعبد له، ولكل صنم مواسم تقدم له فيها النذور، وأعياد يحتفل بها من حوله ، وهذه المواسم والأعياد صارت أسواقاً كبيرة لها شأنها في اقتصاد القبائل وتعايشها ، ولها قيمتها بالنسبة للمطامح السياسية ، والذي لا نشك فيه هنا أنهم كانوا يتخذون الأوثان الممثلة لمناة في بيوتهم ، كما نرجح أنهم كانوا يتخذونها في الأماكن العامة كالأسواق ، وفي القصتين التاليتين ما جزمنا به ورجحناه ، ولكن لكون هذه الأوثان من خشب النخل والأشجار الأخرى وليست من الصخور والحجارة بحكم بيئتهم الزراعية ، ولعدم وجود سدنة يحفظونها ويرعون بيوتها ، لم تأخذ معابدها شهرة تاريخية تؤهلها لاهتمام المراجع ، بينما اهتمت ببيت المدراس عند اليهود في يثرب نفسها، وتحدثت عنها كبيوت للدراسة و العبادة .

تتصل القصة الأولى بهجرة المسلمين الأوائل إلى يثرب ، فقد كان علي ﷺ ضمن المهاجرين إلى المدينة ، ونزل قباء فيمن نزل ، ويروي هذا الخبر الطبري في تاريخه فيقول[1] : (كان علي يقول : كنت نزلت بقباء –يعني أيام هجرته – على امرأة لا زوج لها مسلمة ،فرأيت إنساناً يأتيها في جوف الليل ، فيضرب عليها بابها ، فتخرج إليه فيعطيها شيئاً معه قال : فاستربت لشأنه فقلت لها : يا أمة الله ، من هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كلَّ ليلة فتخرجين إليه ، فيعطيك شيئاً ما أدري ما هو ؟ وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك ؟ قالت : هذا سهل بن حُنيف بن واهب ، وقد عرف أني امرأة لا أحد لي، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها ثم جاءني بها، وقال : احتطبي بهذا ، فكان علي بن أبي طالب يأثر ذلك من أمر سهل حين هلك عنده بالعراق).

(١) تاريخ الطبري ٤٢٤/١ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ومن خلال هذا نخلص إلى حقيقتين هما : أن أوثانهم كانت من الخشب، وأن ما كان يأتيه بها من الأوثان لم يكن تابعاً لملكية خاصة، وإلا لما تجرأ على أخذه ، بل الأشبه أن يكون في مكان عام كسوق ونحوها ، يغفل الناس عنه حين يأوي كل واحد إلى بيته ليلاً ، ولا يعرف الناس ما يحدث لها إلا في صباح الغد ونحو ذلك ، وقد تقام عليها حراسة في بعض الظروف إذا كثر إليها المتسللون، وتكرر الاعتداء عليها، ولكن إلى حين ، وقد يرى بعضهم أن لا خير في آلهة لا يستطيع حماية نفسها بَلْهَ حماية الأتباع ، وهو ما كان بالفعل سبب إسلام بعض الأنصار ، كما تدل عليه قصة إسلام عمرو بن الجموح، وهي القصة التالية التي قلنا إنها تعيننا على الجزم بأن الأوس والخزرج كانوا يحرصون على اتخاذ الأوثان في بيوتهم وخاصة الأشراف منهم ، وقد أوردت هذه القصة أكثر كتب السيرة النبوية[1] ، وذلك أن عمرو بن الجموح بن زيد بن سلِمة كان سيداً من سادات قومه، وشريفاً من أشرافهم ، وكان قد اتخذ في داره صنماً من خشب يقال له: مناة ، كما كانت الأشراف تصنع ، تتخذ إلهاً تعظمه وتظهره ، فلما أسلم فتيان بني سلِمة معاذ بن جبل وابنه معاذ بن عمرو بن الجموح الذي كان ممن شهد العقبة وبايع الرسول ﷺ بها فيمن بايع من الأوس والخزرج ، وغيرهما من بني سلمة ، كان هؤلاء الفتيان يدلجون بالليل على صنم عمرو ، فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة ، وفيها عِذَر الناس وفضلاتهم ، منكّساً على رأسه ، فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم من عدا على آلهتنا الليلة ؟ فلا يجد الإجابة عند أحد ، ثم ينطلق يبحث عنه حتى إذا وجده غسله وطيّبه وطهّره ، ثم وضعه في مكانه ، ثم خاطبه قائلاً : أما الله لو أعلم

(١) سيرة ابن هشام ٤٥٢/١ ، سبل الهدى والرشاد ٢٢٢/٣ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

من فعل هذا بك لأخزينه ، فإذا أمسى ونام عادوا فعدوا عليه مرة أخرى وفعلوا به مثل ذلك ، فيغدو فيجده في مثل ما كان عليه من الأذى ، فيغسله ويطهّره ويطيّبه ، ثم يعدون عليه إذا أمسى، فيفعلون به مثل ذلك ، فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغسله وطهّره وطيّبه ، ثم جاء بسيفه فعلّقه عليه، ثم قال : إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى ، فإن كان فيك خير فامتنع ، فهذا السيف معك، فلما أمسى وأخلد الناس إلى النوم عاد الفتيان فعدوا عليه، فأخذوا السيف من عنقه ، ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل ، ثم ألقوه في حفرة من حفر بني سلمة أيضاً فيها عِذَر الناس ، ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به ، فخرج يتبعه حتى وجده في تلك الحفرة منكساً مقروناً بكلب ميت ، فلما رآه وأبصر شأنه ، قال له : يا لك من إله ضعيف لا يدفع عن نفسه !! وكان ذلك سبباً في حسن إسلامه .

وقال بعد إسلامه يذكر صنمه ويشكر الله الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة[١] :

والله لو كنتَ إلَهاً لم تكن ... أنت وكلب وسط بئر في قَرنْ[٢]

أف لملقاك إلهاً مستَدَن[٣] ... الآن فتَّشناك عن سوء الغَبَن[٤]

الحمدلله العلي ذي المنن ... الواهب الرزاق ديانِ الدِّيَن[٥]

هو الذي أنقذني من قبل أن ... أكون في ظلمة قبر مُرتَهَن

(١) سيرة ابن هشام ٤٥٢/١ . سبل الهدى والرشاد ٢٢٢/٣.

(٢) القَرَن : الحبل .

(٣) مستدن : قال أبو ذر الخُشني : ذليل مستعبد . وقال السهيلي : من السدانة ، وهي خدمة البيت وتعظيمه ، ولعل الأول أنسب للمقام .

(٤) الغَبن : السفه .

(٥) الدِّين : جميع دِنة وهي العادة ، ويقال لها : دين أيضاً .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ولم يُؤْثَر عن اليثربيين أنهم اتخذوا من الأوثان غير أوثان مناة ، إذ كان جُلُّ تعظيمهم لها كما قلنا ، أما ما عداها من الآلهة فهم يدينون لها من باب المجاملة كما يدين غيرهم من العرب بإلههم مناة ، ولقد كانت مناة كما يذكر الكلبي[1] أقدم من كل الأصنام المعروفة حتى اللات والعزى، أما قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾[2]، فإنه لم يقصد منه الترتيب الوجودي ؛ لأن العرب سلبت أخرى مؤنث آخَر - بفتح الخاء - هذا المعنى، فأصبح مرادفاً عندها في الاستعمال لكلمة مغاير، بخلاف آخِرة وآخِر بالكسر، فإن إشعارهما بالتأخير ثابت وباق ، ومن ثَمَّ عدلوا على أن يقولوا: ربيع الآخَر - بالفتح - وجمادى الأُخْرى، إلى ربيع الآخِر - بالكسر - وجمادى الآخِرة ، لأنهم أرادوا أن يفهموا التأخير الوجودي، وكانت قريش تقول عن مناة واللات والعزى: بنات الله وهن يشفعن إليه ، وتقول في طوافها بالكعبة : واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى فإنهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى، فنزل قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾[3].

وهكذا فإن لمناة والمشلل، وبالتالي (قديد) علاقة روحية وشيجة بالأوس والخزرج ظلت مديدة طوال عهدهم بالجاهلية ، أو منذ استقرارهم بيثرب ، ولم تنقطع تلكم العلاقة إلا بعد ظفرهم بنصرة الإسلام، وبلقبهم العظيم الذي يحق لهم أن يتباهوا به مدى الأعصار ، إنهم الأنصار ..!! فصار الواحد منهم إذا سألته

(٦) الأصنام لابن الكلبي ص١٠،٩ .

(٧) سورة النجم .

(١) سورة النجم آية (١٩ -٢٣) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

عن نسبه انتسب للأنصار أولاً ، ثم لأوسيته وخزرجيته ثانياً ، إذ به كان لهم الاعتبار ، وغدوا سادة الأمصار ..

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة